

الإمارات النموذج.. عمق التفكير ووضوح الرؤية

الكاتب



حسن إبراهيم العيسى النعيمي

في لحظات التحول الكبرى التي يشهدها العالم، تنكشف الفوارق بين الدول التي تُبنى على الرؤية، وتلك التي تُدار بردود الأفعال. ومع تسارع الأحداث في المنطقة، لم تعد التجارب قابلة للإخفاء أو التجميل؛ بل باتت تُختبر على أرض الواقع، حيث تظهر صلابة الأسس من هشاشتها، وعمق التفكير من سطحية الشعارات.

في هذا السياق، يبرز النموذج الإماراتي بوصفه تجربة استثنائية لم تكن وليدة الصدفة، بل كانت ثمرة رؤية واعية أدركت منذ البداية أن بناء الدولة لا يقوم على الموارد وحدها، بل على الإنسان أولاً، وعلى العقل الذي يدير هذه الموارد ويوجهها. فإله سبحانه وتعالى وهب الإنسان نعمة العقل ليعمر الأرض، وجعل التفكير والتدبر من أعظم مقاصد الحياة، وهي معانٍ رسّختها التجربة الإماراتية في سياساتها وممارساتها.

لقد اختارت الإمارات منذ تأسيسها طريقاً مختلفاً؛ طريق التوازن بين الأصالة والانفتاح، بين الجذور الراسخة والانخراط الذكي في العالم. فبنت إنساناً معتماً بهويته، قادراً في الوقت ذاته على التفاعل مع التحولات العالمية، واستثمرت في التعليم والمعرفة، وفي بناء مؤسسات حديثة تتسم بالكفاءة والجاهزية والاستشراف.

ومع تعقد المشهد الإقليمي، أثبتت الأحداث الأخيرة سلامة هذه الخيارات. فقد ظهرت الدولة بقدرة عالية على إدارة الأزمات، مستندة إلى بنية مؤسسية متماسكة، ومجتمع يتمتع بوعي جمعي رصين، استطاع أن يميز بين الحقيقة والتشويش، وأن يتفاعل مع المتغيرات بثقة واتزان. كما برزت البنية التحتية المتقدمة، بما فيها البدائل الاستراتيجية في قطاع الطاقة وسلاسل الإمداد، كأحد أهم عوامل الاستقرار والاستمرارية، ليس للإمارات وحدها، بل للمنطقة بأكملها.

* أولاً: الرؤية قبل الموارد

ليست كل الدول الغنية ناجحة، كما أن محدودية الموارد لا تعني الفشل. الفارق الحقيقي يكمن في الرؤية التي تدير هذه الموارد. وقد جسدت الإمارات هذه الحقيقة حين تبنت منذ وقت مبكر مفهوماً متقدماً للأمن القومي، يقوم على التنمية الشاملة في أبعادها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعسكرية، وهو ما منحها قدرة استثنائية على التكيف مع

الأزمات.

* ثانياً: بناء الإنسان كمرتكز حضاري

لم يكن الاستثمار في الإنسان خياراً تكميلياً، بل كان جوهر المشروع الوطني. فالمجتمع الإماراتي اليوم ليس فقط مجتمعاً مستقراً، بل مجتمع واعٍ، يمتلك أدوات الفهم والتحليل، وقادر على مواجهة حملات التشكيك دون أن يفقد توازنه. وهذا الوعي الجمعي هو الحصن الحقيقي للدول في أزمنة الاضطراب.

* ثالثاً: الدولة المؤسسية واستباق المستقبل

ما يميز التجربة الإماراتية هو انتقالها المبكر من منطق الإدارة التقليدية إلى منطق الدولة الحديثة المؤسسية التي تستشرف المستقبل. فالتخطيط لم يكن آنياً، بل كان موجهاً لبناء منظومة متكاملة قادرة على التعامل مع السيناريوهات المختلفة، وهو ما يفسر الجاهزية العالية التي ظهرت في مواجهة التحديات.

* رابعاً: لماذا يُستهدف النموذج الناجح؟

ما يثير الاستغراب أن بعض الدول والتيارات، بل وحتى الأفراد، ينشغلون بمحاولة التقليل من شأن هذه التجربة أو التشكيك فيها، بدلاً من دراستها والاستفادة منها. وهذه ظاهرة ليست جديدة في التاريخ؛ إذ غالباً ما تواجه النماذج الناجحة مقاومة من بيئات لم تستطع أن تنتج بديلاً مماثلاً، فتلجأ إلى النقد بدلاً من المراجعة.

غير أن هذا السلوك يعكس في جوهره أزمة عقل، لا أزمة نموذج. فالعقل الذي يدرك سنن الحياة وقوانينها، يسعى إلى التعلم والاستفادة، لا إلى الهدم والتقويض. وقد عبّر العرب قديماً عن هذه الحكمة بقولهم: «الرأي قبل شجاعة الشجعان»، في إشارة إلى أن حسن التقدير يسبق الفعل، وأن النجاح يبدأ من وضوح الفكرة.

* خامساً: نموذج يُدرّس لا يُحارب

إن التجربة الإماراتية اليوم ليست مجرد تجربة وطنية ناجحة، بل نموذج قابل للدراسة والاستلهام، خصوصاً في العالم العربي الذي يحتاج إلى نماذج عملية تتجاوز الشعارات. فبدلاً من الدخول في متاهات التجريب وإعادة إنتاج الأخطاء، يمكن للدول أن تسترشد بتجارب ناجحة، مع مراعاة خصوصياتها.

في عالم يتجه نحو مزيد من التعقيد، لن يكون البقاء للأقوى فقط، بل للأكثر وعياً وقدرة على التفكير الاستراتيجي. والإمارات تقدم مثلاً واضحاً على أن وضوح الرؤية، وعمق التفكير، والاستثمار في الإنسان، هي مفاتيح الاستقرار والتقدم.

أما محاولات التقليل من هذا النموذج، فلن تغَيّر من حقيقته، بل تؤكد أهميته. فالنماذج الحقيقية لا تُفاس بما يُقال عنها، بل بما تحقّقه على أرض الواقع... والإمارات أثبتت، بالفعل لا بالقول، أنها دولة تفكر بعقل، وتبني برؤية، وتمضي بثقة نحو المستقبل.